الباب التاسع

الاصطبار للعبادة

بين العقل والقلب :

قال تعالى فى سورة مريم : (رَبُّ السمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنهمَا فاعْبُدْهُ واصْطبِرْ لِعِبَادَتِهِ هلْ تعْلمُ لهُ سَمِيًّا) . وتوحى هذه الاية الكريمة لتاليها باستعمال العقل والقلب فى معرفة الله تعالى ، فللعقل برهانه وللقلب عرفانه ، فبالعقل يستدل الإنسان بالخلق على الخالق فيكون استدلال العقل مدخلا إلى عقيدة القلب ، ومن ثَمّ لايتفكر إلاّ عقل سليم ، ولايعتقد إلاّ قلب طاهر ، ولا عقل أسلم من عقل رسول الله ، ولا قلب أطهر من قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقد تحلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسلم عقل وأطهر قلب منذ الصبا الباكر ، فتهيأ بتدبير الله وعونه لاستقبال الوحى الذى أوحاه الله إليه ، فبلّغ الأمة ما أنزل إليه ، ووقف عند أمر الله ونهيه ، وكيف لا يفعل وقد قال له تعالى فى سورة هود : (فاسْتَقِمْ كمَا أُمِرْتَ) . وشرح بقوله وفعله وحاله ما أجمله كتاب الله الكريم ، فسمع أصحابه منه ، وأخذوا عنه ، وتأسَّوْا به ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، ولئن كانوا لم يبلغوا الغاية التى بلغها فقد حاكوا السير على منواله ، وترسّموا خطاه ما وسعهم الجهد ، وكانوا فى هذه الأمة الصف الأول الذى يليه ، صلى الله عليه وسلم ، وقد قال تعالى فى سورة المزّمل :

(إنَّ رَبّك يَعْلمُ أنك تقومُ أدْنى مِنْ ثلثى اللّيْلِ وَنِصْفهُ وثُلُثَهُ وطائفةٌ مِنَ الذِين مَعَك) . وقد خاطبهم وخاطبنا سبحانه فقال : (لقدْ كان

لكمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَة حَسَنة لِمَنْ كان يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذكر الله كثِيرًا) .

اصطباره صلى الله عليه وسلم للعبادة :

وقد عبد صلى الله عليه وسلم ربّه ، واصطبر لعبادته ، والاصطبار هو نهاية الصبر ، فكان العابد الأول فى خَلْق الله أجمعين ، وكان بهذه العبادة إمام الأنبياء والمرسلين ليلة الإسراء ، فدانوا له بالزعامة ، ورضوا بأن تكون له الإمامة كما أحب الله تعالى ، لذلك لاتعجب أن يقوم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فيطيل القيام بين يدى ربه مصليًا ، ويكثر من قراءته فى الصلاة ، حتى كان يقرأ فى الركعة الأولى سورة البقرة وفى الثانية آل عمران ، فلا تعجب أن يحدّث عنه ابن مسعود رضى الله عنه فيقول : « صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطال القيام حتى هَمَمْتُ بأمر سوء ، قيل : وما هممت به ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه » . وقد حدّثَتْ سيدتنا عائشة رضى الله عنها فقالت : « إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت له : لماذا تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال : أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً ؟ » .

تطويل القراءة :

ولتطويل القراءة فى قيام الليل ، كانت ركعاته على الرغم من طول الوقت لا تتجاوز إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة ركعة (بالوتر الذى يختم به صلاته) .

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وجَدّ وَشَدَّ المِئْزَر » ؛ كما قالت رضى الله عنها : « كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى » ؛ وحدّثت أيضًا رضى الله عنها فقالت : « كان صلوات الله عليه يذكر الله على كل أحيانه » .

نصيحة نبوية :

وعن معاذ رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخذ بيده وقال : « يا معاذ ، والله إنى لأحبك ثم أوصيك ، يا معاذ لا تدَعَنّ فى دُبرِ كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرِك وشكرِك وحُسنِ عِبَادَتِك » .

العلم والعبادة :

ولما كان العلم سبيلاً لصحة العبادة ، فقد جاء فى الحديث الشريف : « من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سَهل الله به طريقاً إلى الجنة » . وشجّع صلوات الله وسلامه عليه على تطبيق العلم فقال : « من عَمِلَ بما عَلِمَ وَرثَهُ الله عِلمَ مَالمْ يَعْلَمْ » . أقول والفتح الذى شاهدناه بأنفسنا على بعض الصالحين مِصْداق لصحة ذلك الحديث ، فضلا عما امتلأت به بطون الكتب من فتوحات أسلافنا الصالحين .

همة الأولياء فى طلب الله :

وكم ظهر فى الأمة المحمدية فى كل جيل من الأولياء الذين تَاسوا بمولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتحلوا بالهمة فى طلب الله ، وآثروه تعالى عما سواه طمعاً فى رضاه ، وهم الذين عرفهم كتاب الله تعالى ، فقال : ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خوْف عَلَيْهِمْ وَلا همْ يَحْزَنونَ الَّذِينَ آمَنوا وَكَانوا يَتَّقون لهمُ الْبُشرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَفِى الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هوَ الْفوْز الْعَظِيمُ﴾ ، ويقول فى وصفهم تفصيلا الإمام أبو بكر الكلاباذى رضى الله عنه فى كتابه « التعرف لمذهب أهل التصوف » .

« سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا ، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة ، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت سرائرهم فأكرموا بصدق الفراسة ، ثبتت أقدامهم ، وزكتْ

أفهامهم ، وأنارت أعلامهم ، فهموا عن الله ، وساروا إلى الله ، وأعرضوا عما سوى الله ، خرقت الحجب أنوارهم ، وجالت حول العرش أسرارهم ، وجلت عند ذى العرش أخطارهم ، وعميت عما دون العرش أبصارهم ، فهم أجسام روحانيون ، وفى الأرض سماويّون ، ومع الخلق ربّانيون ، سُكوتٌ نُظّار ، غُيّب حُضّار ، ملوك تحت أطمار ، أنزاع قبائل ، وأصحاب فضائل ، وأنوار دلائل ، آذانهم واعية ، ونفوسهم صافية ، ونعوتهم خافية ، صفويّة صُوفيّة ، نوريّة صَفيّة ، ودائع الله بين خليقته ، وصفوته فى بريّته ، ووصاياه لنبيه ، وخفاياه عند صفيه ، هم فى حياته صلى الله عليه وسلم أهل صُفّته ، وبعد وفاته خيار أمته ، لم يزل يدعو الأوّل الثانى ، والسابق التالى بلسان فعله أغناه ذلك عن قوله » .

وفى قوله رضى الله عنه : « ووصاياه لنبيه » يشير إلى وصاية الله بأهل الصُّفّة من فقراء المهاجرين فى قوله تعالى فى سورة الكهف : (واصْبِرْ نفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُون رَبَّهمْ بالْغدَاةِ وَالْعشِيّ يُرِيدُون وَجْهَهُ) .

ووصاية الله هذه كان يقدّرها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قدرها ، فكان دائم العطف عليهم والإكرام لهم ، حتى لقد قال مرة (من حديث مسلم) لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه : « أأغضبتهم يا أبا بكر ؟ لئن كنتَ أغضبتهم لقد أغضبتَ الله » ، فأسرع إليهم سيدنا أبو بكر وقال لهم : أغضبتكم يا إخوتاه ؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك .

فانظر إلى همّتهم (يدعون ربهم بالغداة والعشىّ) ، وانظر إلى صفاء نيّتهم ، وطهارة طويّتهم (يريدون وجهه) . وقد حاكاهم أتقياء الأجيال التى جاءت من من بعدهم واتبعوهم بإحسان ، فسعدوا بولاية الله ، وكان منهم المؤمنون والمؤمنات ، وهاهى ذى السيدة رابعة العدوية قد حركت القلوب ، وألهبتها شوقًا إلى الله ، بما آتاها الله من فضله ، وكانت رضى الله عنها ذات عزم لا يبارى فى العبادة ، حتى لقد كانت تصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة وتقول : ما أريد بها ثوابًا ولكن ليُسَرَّ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول للأنبياء : انظروا إلى امرأة من أمتى ، هذا عملها فى اليوم والليلة .

شيخى والتجلى :

وصدق شيخى وسيدى العارف بالله الشيخ على عقل إذ يقول فى إلهامه الارتجالى الذى نقلناه عنه :

بحرُ التجلى كلّه حكمةٌ ... كم تسكر الأرواحُ من عَذْبه
دع ما يقول الناسُ من علمهم ... ما دمت تلقى العلم من سَيْبه

ويقول :

علومى فى الورى نفحاتُ ربّى ... فما بلغوا مذاق أو شمولى
ولى من مشرق الإيمان علم ... سموتُ به على كل الفحول

وكان رضى الله عنه من المصطبرين لعبادة الله ، شوقًا إلى الله وحُبًّا فيه ، حتى هجر النوم قرابة أربعين عامًا ، وسهر الليل كله عابداً ، كما لمسنا ذلك منه بأنفسنا معاينة ، وقد علّمه الله من لدنه ما بهر العقول ، وشَهِدْتُ فى مجلسه مرات كثيرة كبارَ العلماء يستمعون إليه ويقرّون بفضله ، وقد تربى رضى الله عنه فى الطريقة الخليلية لصاحبها القطب الأكبر سيدى الحاج محمد أبو خليل ساكن ضريحه المبارك بالزقازيق ، عن يد خليفته شيخى وسيدى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى طيّب الله ثراه ، ذلك المبارك الذى كان يتلقاه شيخه الإمام أبو خليل بترحاب خاص ويقول له أهلا بالولىّ الكامل وصدق الله تعالى إذ يقول فى سورة الواقعة :

(ثلّة مِنَ الأولِينَ ۝ وثلّة مِنَ الآخِرينَ) . وحين يقول (ثلة منَ الأوَّلِينَ ۝ وَقلِيل مِنَ الآخِرِينَ) . وقد مَنَّ اللهعلىَّ بصحبة هؤلاء الصالحين قبل انتقالهم ، فنفعنا الله بمقالهم وحالهم فى حياتهم ، ومازلنا نلمس بركاتهم بعد انتقالهم ، فجزاهم الله عنَّا خيراً كثيراً ، ورحمة الله على صديقى وأخى فى الله الراحل الكريم الأستاذ محمد جاد الرب إذ يقول :

إذا لم يكن لى عزمُهم وجهادُهم ... فإنى بهم صبٌ وفيهم متيَّم
وإن ضاق خطوى عن لحاق بركبهم ... فإنى على آثارهم أتَرسَّم

ومن يعتزم عَبْرَ الطريق فإنه سيهدَى إلى سر الطريق ويُلْهَمُ
ولا بد للسارى وإن كان وَانيًا إذا صح عزمًا أنه يتقدم

شيخك الذى يربيك :

وينصحنا سادتنا العارفون بالله تعالى فيقولون : والشيخ الذى يلقى إليه المريد بالقيادة (أى لتربيته فى جنْب الله تعالى) هو العارف بأحوال النبي صلى الله عليه وسلم ، وسُقيت ذاتُه من نوره صلى الله عليه وسلم حتى صار على قَدَم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأمده الله تعالى بكمال الإيمان وصفاء العرفان ، فإنه يجمع العبد على ربه ، ويقطع عنه الوساوس فى معرفته، ويرقيه فى محبة النبي صلى الله عليه وسلم ، والشيخ الموصوف بذلك متعدد والحمد لله فى البلاد والعباد ، فلا تخرج عن أهل السنة والجماعة ، فاطلبه تجده (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) ، كما يقول العارفون رضى الله عنهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المرآة الكبرى والمجلى الأعظم ، وإن أقواله وأفعاله وأحواله كلها دائرة على الدلالة على الله والتعريف به، والمعرفة لانهاية لها، فما دام الإنسان يترقى فيها ، فهو يغترف من بحره صلى الله عليه وسلم ، ويستمد منه ، ومع ثبوت الإيمان للعبد لايستغنى فى التوصل إلى المعرفة عن خلفائه، صلى الله عليه وسلم، الذين ينوبون عنه فى الإرشاد من المشايخ المهتدين العارفين بالله تعالى .

ويقول الإمام جلال الدين الرومى رضى الله عنه فيما ترجمه عنه صديقى الشيخ الصاوى شعلان جزاه الله خيرا :

« سبحان من قدر فهدى ووفق كل كائن للغاية من فطرته ، إن إلهام النحل هو الشهد، وإلهام حشرة القز نسج الحرير ، وإلهام البلبل أغانى السحر، وإلهام رجال الله نور يشهدون به ملكوت السموات والأرض :

صدقوهم هم مصابيح الدجى أكرموهم هم مفاتيح الرجا
اتبعوا من لايسألكم أجراً وهم مهتدون » .

كما يقول رضى الله عنه : الشيخ مثل القمر، والناس مثل الليل ، فاختر لك شيخًا مرشداً، فإن السفر بدون المرشد كثيراً ما يكون مليئًا بالآفات والمخاوف والأخطار

ولاتمش وحيداً فى الطريق التى لم ترها قط ، ولاتحول وجهك عن الدليل ، وبدون الدليل تكون حائراً حتى فى الطريق التى طرقتها مراراً.

ويقول العلامة العقاد رحمه الله فى كتابه « عبقرية محمد » :

فكَّرَ (يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم) فى الخلق فآمن بالخالق ، واستقر هنالك لايتقدم ولا يتأخر ، فقال : « إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول : من خلق السماء ؟ فيقول : الله ، فيقول : من خلق الأرض ؟ فيقول : الله. فيقول : من خلق الله ؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل : آمنت بالله ورسوله » .

« تلك هى نهاية التفكير التى ينتهى إليها عقل مستقيم خلق للعبادة ، عامل لتعليم الناس عبادة وعملا ، ولم يُخلق ليوغل فى الفروض ويتقلب بين الشكوك .

« ولهذه السُّنة التى استنَّها النبى عليه الصلاة والسلام فى عبادته الروحية كثُرت وصاياه بإدمان التفكير فى خلق الله واجتناب التفكير فى ذات الله ، فقال فى حديث: "تفكّروا فى آلاء الله ، ولاتفكروا فى الله" ، وقال فى هذا المعنى : "تفكروا فى خلق الله ولاتفكروا فى الله فتهلكوا " وقال الله فى حديث قدسى : "كنت كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرف ، فخلقتُ الخلقَ فبى عرفونى" .

« أما عبادة الشعائر الظاهرة فهى عبادة الإسلام كما فرضت على جميع المسلمين : يصلى النبى ويصوم ويحج ويؤدى الزكاة على الشريعة التى يتبعها كل مسلم ، وقد يطلب إلى نفسه فى هذه العبادات ما ليس يطلبه إلى غيره ، على سنة السماحة والتيسير التى أثرت عنه فى كل عمل من أعماله وكل سجية من سجاياه ،

« فكان أخف الناس صلاة بالناس ، وأطول الناس صلاة لنفسه ، وربما قام الليل أكثره أو أقله ، ولا يدين أحداً بالتهجد كما كان يتهجد ، أو بالصلاة والصيام كما كان يصلى ويصوم ، بل قد نهى الناس أن يشتدّوا فى العبادة فيصبحوا كالمُنْبَتّ " لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى "

« وكان محمد إذا حَزَبَهُ أمر صَلَّى ، لأن النفس المفطورة على العبادة تكون الصلاة عندها مناجاة حب وفرحة لقاء ، ومتى وجدت النفس " فرحة اللقاء " فى الصلاة فلا إجهاد فيها لجسد ولاتضييع فيها لوقت .

نفحات القرآن الكريم :

وأقول : إن الآية التى صدرت بها هذا الباب أقضت مضجعى ليلة كاملة، وكنت كلما هجعت قليلا **أستيقظ** ويسبح فكرى فيها بقوة ، وكانت روحى تتأثر تأثيراً قوياً وتنفعل بذلك **الاستفهام** الرائع التى ختمت بها الآية « هل تعلم له سميًّا ؟ » فهو استفهام إنكارى يدعونا به الله إلى بذل المجهود بين يدى المعبود الذى يستحق العبادة وحده لا إله إلا هو رب العالمين ؛ وقد تذكرت بانفعالى قول الإمام الصوفى أبى سليمان الدادانى : إنى أقرأ الآية من كتاب الله فيذهب فيها لُبّى خمس ليال وسبحان الذى يَرُدّه علىّ بعد ذلك .

اللهم ارزقنا حسن عبادتك والاصطبار لها كما تحب وترضى ، فالتوفيق منك ، والصبر بك ، والقوة لك ، آمين .

والمؤمن بعباداته وطاعاته إنما يزكى روحه فى جنب الله تعالى فيكون من المفلحين حيث يقول سبحانه :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) ، وقيمة الإنسان فى قوة إيمانه الباطنة التى تغيب عن العين كما تغيب عنها رائحة الوردة فإن رائحتها تشم ولا ترى ، ولا قيمة للوردة بغير رائحتها ، وصدق بعض صوفية الفرس فى قوله الذى ترجمه صديقى الفاضل الشيخ الصاوى شعلان :

إذا الورود خلت من طيب نفحتها ... فلا تزاحم بها فى الأرض بستانا
إذا الوجوه خلت من نور سجدتها ... لم تستحق غداة الموت أكفانا
إذا القلوب خلت من ذكر خالقها ... فهى الصخور التى تحتل أبدانا
إذا خلا المرء من علم ومعرفة ... ظلمت نفسك لو تدعوه إنسانا